اللغة عنصراً اتصالياً في الشعر خاصة

حاتم الصكر

ينبّهُ العلاّمةُ ابنُ خلدون ، مبكّراً إلى ما يجرُّه (الاتصال) من انحرافٍ لغوي ؛ فهو يقرّر في الفصل السادس والثلاثين من (مقدمته) « أنّ اللغةَ في المُتعارف هي عبارةُ المتكلّمِ عنَ مقصودِهِ »[1] وهذه الوظيفة التعبيرية للّغة يؤديها اللسان فتغدو مَلَكةً تتوارثها الأجيال .

لكنّ هذه المَلَكة تتأثر بما يطرأ على المقصود نفسهِ من توسّع وتغيّر .

ويساعد السمعُ (الذي يصفه ابن خلدون بأنه أبو الملكاتِ اللسانية) على فسادِ مَلَكة اللغة إذ أن « الناشىء من الاجيال صارَ يسمعُ في العبارة عن المقاصد كيفياتٍ أخرى غيرَ الكيفيات التي كانت للعرب فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطينَ للعرب من غيرهم ؛ ويسمعُ كيفيات العربِ أيضاً فاختلط عليه الأمرُ وأخذَ من هذهِ وهذهِ فاستحدثَ مَلَكةً وكانت ناقصةً عن الأولى . . »[2] . وأحسب أنّ نص ابن خلدون ـ وهو المؤرخ الحضاري وعالم الاجتماع ـ يُسعفنا كثيراً في الدخول إلى مشكلة الاتصال وما يترتب عليه من تغيّر في اللغة ، سواء أكان ذلك في وظيفتها التعبيرية أم في وظيفتها الشعرية (الإيحائية) . . فالأجيالُ الناشئة من الناس ـ حَسْبَ ابن خلدون ـ أخذتْ (تسمع) عبر اتصالها بالمخالطة مع الآخرين (كيفياتٍ) غيرَ التي كانت للعرب . لكنّ هذه الكيفيات ـ التي فرضَها الاتصال الاجتماعي ـ تؤدي الغرضَ المطلوب في التعبير عن المقصود أو الإبلاغ (كما يُدعى اليوم في علم الاتصال) . وهذا وحده كاف ليمتحنَ حيويةَ اللغة وقدرتَها على الاستمرار . إنّ الجماعة ستكتفي بما تراه مناسباً للتعبير عن المقصود الذي تريد إبلاغه . وذلك يعني أمرين مهمين :

الأول : إنزواء عدد من المفردات والتراكيب التي لا تخدم الاتصال أو المهمة الإبلاغية للّغة .

والثاني : ظهور مفردات جديدة وتراكيب مستحدثة يقتضيها الاتصال الذي تطوّرت أدواته .

ويتخذ انزواء المفردة وظهور أخرى مظاهر متعددة في لغتنا بفعل التطور الكبير الذي تمر به وسائل الاتصال (الإذاعة المسموعة والمرئية ؛ الصحف ، الكتب . وفي هذه قنوات الاتصال) .

إن نمو تلك الوسائل أعاد للمسمع سطوةً جديدة . فصار المستحدثُ من الألفاظ يأخذُ قوة التأثير في المتلقّي عبرَ ما يسمع من ألفاظ . كما أنّ نموَّ الوسائل الاتصالية جعلنا نحسُّ

---

(١) مقدمة ابن خلدون . طبعة دار مكتبة الهلال ـ بيروت ـ ١٩٨٣ ـ ص ٣٣٩ .

(٢) نفسه ـ ص ٣٤٤ .

ثانيةً بالخطر الذي أشارَ إليه ابن خلدون وهو الاختلاط بين الأمم اختلاطاً غير متكافىء يسرّب إلى لغتنا تراكيبَ ومفرداتٍ ليست منها . إن حيوية اللغة واستمرارها عامل ضعف مثلما هو عامل قوة . إذ أن الزمن ـ كما يلاحظ سوسير ـ « الذي يضمن استمرارية اللغة ، له تأثير آخر (. . .) فهو يدفع إلى التغيير السريع أو البطيء للإشارة اللغوية »(٣) .

فاستمرارية اللغة ، بناء على ذلك، ليست دليلاً على أنها حيّة بل دليلٌ على امتلاكها (مقومات الحياة) وهذا هو الذي يجعلها تستجيب للتغيير .

أي أن الزمن يغير استمرارية اللغة مثلما يَحْفَظُها وذلك لكونها نتاجَ الجماعة . وسوف يحيلنا ذلك إلى التفريق بين اللغة والكلام حسب مقترح سوسير نفسه .

فاللغة تعبّر عن حاجة (مجتمع المتكلّمين) في زمن معيّن . وهذا التعيين يضعُ اللغةَ تحت طائلة التغيير بفعل الزمن الذي يؤثر في مجتمع المتكلمين نفسِه ، ويجعلُ الأفرادَ محتاجينَ إلى كيفيات جديدة للتواصل فيما بينهم . إن اللغة امتياز الإنسان بين المخلوقات الأخرى . وليس هذا الامتياز هيّناً . إذ أنه يرتّب الارتباط بالإنسان الآخر وبالبيئة لإنجاز عملية التواصل التي تقوم عليها الحياة الإنسانية .

وما دامت الحياة ليست نهائية الشكل ، فإن اللغة ـ وهي تؤدّي مهمة الكلام تفاهماً واتصالاً ـ سوف تكتسب ميزة التغيّر أيضاً . وليس بعيداً عنّا تشبيهُ هوراس للّغة بأنها شجرة تنزع عنها أوراقها كلَّ عام لتظهر أوراقٌ جديدة رغم أنَّ الشجرةَ باقية . فالحاجة إلى اللغة تظل قائمة ما دام الكلام مستمراً . وإنما الذي يتغيّر هو كيفيات التعبير تأثراً بما يستجدّ في عالم الإنسان .

وكلّما ازداد أثرُ الوسائل الاتصالية قوةً ازدادت استجابة اللغة وابتكرتِ الجماعةُ من الكيفيات ما يضمنُ استمرارَ الشجرة رغم تغيّر الأوراق . ويُبنى على ذلك قولُنا بأن اللغة تتكيّف باتجاهين : حماية نفسها باستيعاب المستجدات ؛ وتسهيل مهمة التواصل بكيفيات مبتكرة .

وليس هذا دفاعاً عن لغة عصرنا ، بل انتصارٌ لقدرة لغتنا العربية على التعبير عن حاجة مجتمع المتكلمين بما يضمن درجة راقية من التواصل .

---

(٣) علم اللغة العام ـ فرديناند دي سوسور . ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز ـ دار آفاق عربية ـ بغداد ـ ص ٩٣ .

إن الاستخدامَ اليومي للغة يفرض مستوىً اتصالياً تضعف فيه شيئاً فشيئاً مهمّتُها الشعرية . وقد يغري ذلك باقتراح لغة متخفّفة من الضوابط تخسر فيه لغتنا كثيراً من مزاياها البيانية .

ولكن العربية ـ وهي من أثرى اللغات في باب المجاز ـ لديها ما يصون شخصيّتها . وهو طواعيتُها للاستجابة التعبيرية عما يستجد في حياة الجماعة . وهذا أمر يؤكده تحدي وسائل الاتصال أولاً وتعريبُ المصطلحات والمخترعات ثانياً .

وهذان مظهران لاستمرارية اللغة العربية وتغيّرها في آن واحد . وهو ما تكفّل النثر بالتعبير عنه وحلّ إشكاله .

لقد انتقل التعبير بالفعل (فتح) من الباب إلى التلفزيون ؛ فصرنا نقول : فتح الرجل التلفزيون وهو تركيب منقول عن (SWITCH ON) بالانكليزية ، وصار لدينا ما يقابله أيضاً . أغلق أو أقفل . وهما فعلان مستخدمان في (الباب) خاصة .

هذه الطواعية يمنحها المجاز شرعيّة لائقة فلا تضيق بها العربية مبنى ولا معنى .

هذا المثال الميسور يوقفنا على ميزة التغيّر والاستجابة وانتقال الحاجة الاتصالية من اللغة إلى الكلام .

وصار في استطاعة المرسِل أو باعث الكلام أن يوصل إلى المتلقّي أو المرسَل إليه ، عبر قناة الاتصال ، مرسِلةً كلامية يتحقق فيها عنصرا الإبلاغ : المبنى والمعنى .

فمهما يكنْ من أمرِ المرجِع المعجمي للفعل (فتح) أو الفعل (أغلق) فإن التواصلَ حاصلٌ دون الإخلال بنظام اللغة .

إن المعجمَ لن يغدو في هذا المثال حجةً على فساد المفردة ما دام الزمن الذي وُصفت به المفردة غير الزمن الذي وصفت فيه مجدداً .

ولهذا فإننا نستبعد اليومَ فكرة أن نواجِهَ كاتباً عربياً من عصر سابق بنص مكتوب في عصرنا ؛ وننتظر أن يفهمَ العلاقات بين مفرداته كما نفهمها نحن . فهذا ليس منطقياً لأنه يُسقط عن اللغة زمنيّتها .

ولكنّ التراكيبَ ذاتها هي التي ستبدو غريبةً هذه المرة .

إن نظامَ الشعر خاصة سوف يصيبُه الارتباك ؛ حين نعرضه للفحص والتقويم ضمن المهمّات الاتصالية السائدة .

إن الشاعر يريد أيضاً أن يبلّغ رسالة . لكنه لا يستخدم اللغة

وفق معانيها الأولى . وإلاّ لاكتفى بالكيفية النثرية للإبلاغ عن مقصوده .

لقد دخل الشعر منطِقَة المجاز دخولاً شديداً حتى صارَ المجاز جوهرَ الشعرية العربية .

فالشاعر لا يسمّي الشيء باسمه . ولا يعبِّر عن مقصودِهِ مباشرة . وهذا يرتّب مهمة (شعرية) للّغة ينالها التغيّر كما ينال اللغة عامة .

إن الشاعرَ أشدُّ الناس إحساساً بما يحصُل للمفردة اللغوية من تغيّر . تعبّر الشاعرة نازك الملائكة عن ذلك صراحةً في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) حين تقول :

« . . . لاحظتُ أننا ، في هذا العصر ، قد أصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة (البدر) فنهملها إهمالاً يكاد يكون كلياً . ونؤثر عليها لفظ (القمر) وقلَّ من الشعراء المعاصرين من يرضى استعمال كلمة (بدر) إلاّ في الحالات النادرة . وأنا أعترفُ أنني أكلّف نفسي أحياناً متاعب كثيرة ، لكي لا أستعملها . . . »[٤] .

إن الشاعرة تختصر بهذا المثال تغيّر الإحساس بالمفردة شعرياً .

فالمهمة الاتصالية قد تؤدّى كاملة باستعمال لفظ (البدر) ؛ لكن ذلك يتطلّب استدعاء ذاكرة المفردة وتاريخها المعجمي المرتبط ضمن سياق الشعر بنظام تقليدي كرّسته البلاغةُ حين قرنتْ جمالَ الوجه ببياض البدر أو ضيائه .

لم يعد ، إذن ، لمفردة (البدر) وقعُها الأول رغم استمرار وظيفتها الإبلاغية نثرياً . وهذه مشكلة ثانية في الشعر خاصة .

إن كثيراً من المفردات اللغوية السائدة لا تنهض بمهمّة التعبير الشعوري لسببين متباعدين : أحدهما : كون المفردة من لوازم الأشياء التي انقرضت كالأطلال مثلاً ـ وثانيهما : كونُ المفردةِ من لوازم الأشياء التي استجدّت حديثاً وهي تحمل في طياتها نثراً لا يقبله الشعر .

ولنمثل لذلك بكلمتي : النؤي والمنجزات .

الأولى بثقلها التراثي الآتي من نظام إجتماعي قائم على التنقّل والحياة الرعوية وما يتبعها من تغيير المسكن وبقاء الأحجار المحيطة بالخيام ، واستقرار هذه المفردة في

(٤) شظايا ورماد ـ نازك الملائكة ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ط ١ ـ ١٩٤٩ ص ٧ .

المعجم ـ أي في اللغة ـ دون الكلام ـ أي الاتصال ـ سيعطي الشاعرَ الحقَّ في هجرانها لأنها لن تفيد شيئاً في نظام البيت الشعري المحتكم إلى شبكة علاقات قائمة بالتجاور التركيبي ، ولن تثير في المتلقي أو مستلِم المرسِلة الكلامية أيَّ انفعال أو أية استجابة .

وهذه احدى ركائز الحداثة الشعرية العربية ، فاللغة بفعل تغيّر الحياة نالها الكثير من التغيّر حتى وصل الأمر إلى بناء الجملة الشعرية ذاتها .

أما لفظ (المنجزات) وهو مستحدث كما نعلم ؛ فلا تقبلهُ القصيدة لما فيه من نثر ومباشرة .

إن جدّة اللفظ لم تمنحه القبول داخلَ بنية الجملة الشعرية .

فاللفظ (المنجزات) سوف يسحب انتباه القارىء إلى كلام غير شعري يتّسع حتى يفقد الشعر ميزته .

يميّز أدونيس بين مستوى الإنسان الخلّاق ومستوى الإنسان المستهلك .

ويرى أن الشاعر يجب ألا يسايرَ الحاجة الطاغية إلى التبادل والإيصال . لأن هذه المسايرة « تقوده إلى أن يرى اللغةَ مجردَ وسيلة أو أداة ، مما يتناقض مع الشعر ولغته . . »[٥] .

ولنعد إلى (قمر) نازك الذي استبدلته بالبدر .

إن حساسيتها الشعرية تستجيبُ لمهيمنةٍ عصرية شاملة . فبدر العصر العباسي مظهرٌ لشعرية بادَت في حقبة خاصة . وذلك ممكن الحدوث أي أن وجود (المهيمنة) ـ كما يقرّر جاكوبسون ـ لا يقتصر على الأثر الأدبي ولا في الأصل الشعري أو في مجموع أصول مدرسة شعرية « ولكن أيضاً في فنّ حقبة معينة ، باعتبارها كلاً واحداً . . »[٦] .

وهذا تأكيد للبعد الزمني وأثره في اللغة . وهو يتضح في الاتصال بصورة خاصة ؛ إضافة إلى البعد البيئي .

إن (القيمة المهيمنة) قد تكون لغوية مندرجة في الكلام نفسه . كقولنا :

ـ في الليلِ جاءنا الخبر

(٥) سياسة الشعر ـ دراسات في الشعرية العربية المعاصرة ـ أدونيس ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٣٣ .

(٦) نظرية المنهج الشكلي ـ نصوص الشكلانيين الروس ـ ترجمة إبراهيم الخطيب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٢ ـ ص ٨٢ .

فالجار والمجرور المقدَّمان هنا يهيئان لمهيمنة كلامية . ففي الليل ولا في الصباح ؛ جاءنا الخبر . وبهذا يريد المتكلم أن يصل إلينا كلامُه .

أما حين نقول : الخبر جاءنا في الليل . فإنّ القيمة المهيمنة تكون للخبر الذي يريد المتكلم أن يشد انتباهنا إليه . فالخبر جاء وليس الضيف أو القطار .

وقد تكون في عمل أدبي (شعريّ أو قصصيّ) قيمة مهيمنة . كما يمكن أن تكون تلك القيمة مهيمنة في عصر كامل (وصف الخمرة ومجالسها في العصر العباسي مثلاً) .

وذلك يتحدّد بالنظر إلى اللغة عنصراً إتصالياً متغيّراً قد يدخل في النظام الخاص للشعر نفسه . وهذا ما أكده مثال نازك الآنف الذكر .

وإذا كان البدر والقمر يثيران مشكلة شعرية المفردة في عملية إتصال متغيّر ، فإن المجاورة ستثير مشكلات أخرى في الاتصال الشعري .

معروف أن اللغة الشعرية ذات مهمة إيحائية . وهذا يرتب مشكلة حقيقية ، فالمتلقّي قد يفهم ما توحي عبارة ما ، متركبة من مفردات ، لديه مرجع بشأنها .

ولكن متلقّياً آخر لا توحي العبارة في نفسه شيئاً ، لأن المرجِعَ مفقود بالنسبة إليه أو مشوّشٌ بذكرى معيّنة .

يمثل أمبرتو إيكو لذلك بجملة (هذا الرجل جاء من البصرة)[٧] . ويفترض توجهها إلى ثلاثة متلقّين : عراقي : تحفّزه (البصرة) سريعاً نحو حقيقة دالّة يمكننا ، بعجلة تعيين روابطها . وأجنبيّ جاهل بالجغرافية ، لا تعني لديه شيئاً فتتركه العبارة مستغرِباً هذا المكانَ غيرَ المحدود . ومستمع ثالث توقظ في ذهنه كلمة (البصرة) مكاناً تخيلياً مكتشفاً عن ألف ليلة وليلة فتغدو ذات طقس خيالي غريب .

وهذه الاستجابة موضوع دراسة في أحدث نظريات التلقّي وجماليات الاستجابة والقراءة .

إن ثمة موجّهات للقراءة يمثّل المرجع أحد مرتكزاتها . . ولا بد هنا من قيام وسيط لتحقيق الاتصال .

لقد واجهتني شخصياً مشكلة مماثلة وأنا أقدم نصاً عراقياً إلى قارىء عربي[٨] . إذ كان عليّ ـ وأنا أحلل قصيدة لحسب الشيخ جعفر ـ في رثاء حسين مردان ، أن أضع ما يُشبه المعجم الخاص لألفاظ القصيدة التي بُنيت على محاكاة ساخرة لألفاظ حسين مردان ولغة قصائده البسيطة . . . وكان عليّ أن احدّد (المرجع) قبل التحليل وخلاله . وصار عندي يقين بأن المتلقّي لم يُقم اتصالاً تاماً بالنص لضعف صلته بالمرجع . فالشاعر يستخدم التلميح إلى (الأرجوحة هادئة الحبال) ـ عنوان ديوان لمردان ـ فيقول :

تلكم الأرجوحة احتُطبت وطَيَّرت الرياح
رمادَها

ولا تستطيع الأرجوحة أن تؤدي وظيفة شعرية دون حضور المرجع . كذلك لن يستطيع القارىء أن يتصل بالمحاكاة الساخرة التي يثيرها العنوان (عاثر الضباب) إلا إذا أحيط علماً بأن مردان كان يطلق على نفسه (رجل الضباب) . .

هذه الأمثلة تقودنا إلى القول بما يعيق الاتصال شعرياً في حالة إفتقاد المرجع سواء أكان زمنياً أم بيئياً أم شعرياً .

في القصيدة لا يظل للمفردة مهمة الإبلاغ فحسب . بل يكون لها دور إيحائي أو شعري وهو الذي يرتّب تلك المشكلات التي قلنا إنها حاصلة من صفة التغيّر أو التكيّف .

والخلاصة :

إن ما يطرأ من تغير على المفردة فناء أو حدوثاً أو إنحرافاً لا يشكل خطورة قدر الحاجة إلى فهم النظام الجديد المترتب على ذلك .

وفي الشعر لا بد من النظر إلى المفردة ضمن الجملة الشعرية التي تستجيب بدورها للتغير سواء في الدلالة أو النظام الشعري العام .

---

(٧) في أصول الخطاب النقدي الجديد ـ ترجمة أحمد المديني ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ ١٩٨٧ ـ ص ص/٨٧ ـ ٨٨ .

(٨) الكنز والجرة الخاوية ـ الأسطورة في شعر حسب الشيخ جعفر ـ حاتم الصكر ـ مجلة الأقلام ـ العدد ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٨٧ ـ ص ١٢٨ .